الحق إذا اطّرد به فقد شاركهم في هذا الخلق وكذلك من حمله ذلك على الأنفة عن قبول النصيحة والوعظ كما قال تعالى وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبرا وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال عليه السلام لا استطعت فما منعه إلا الكبر قيل فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده فإذا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله تعالى وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا وما حكى من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال أنا خير منه وهذا الكبر بالنسب لأنه قال خلقتني من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله به فكان مبدأه التكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله وكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله إني امرؤ قد حبب إلي من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو فقال لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس وقوله غمص الناس أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى وقوله سفه الحق أي رده وهي الآفة الثانية فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن أنف أن يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله

سفه

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي والديني هو العلم والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار فهذه سبعة أسباب الأول العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آفة العلم الخيلاء

آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم كالبهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدؤه بالسلام فإذا بدأ أحدا منهم بسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويدا عليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم وفعل معهم ما لا يستحقون وأنه ينبغي لهم أن يخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه ولا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم فإن قصر منهم مقصر استنكره كأنهم عبيده وكأن تعليمه لهم العلم صنيعة منه لديهم هذا فيما يتعلق بالدنيا وأما في الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما إذ العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذه العلوم تزيده خوفا وتواضعا وتقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا فاعلم أن لذلك سببين أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا إذ العلم الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه وربه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب عنه وهذا يورث الخوف والخشية دون الكبر والأمن قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء فأما ما وراء ذلك كعلم اللغة والنحو والطب والشعر والحساب وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى يمتلئ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا وهذه العلوم بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذا يورث التواضع غالبا السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردي النفس سيء الخلق فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية

Copyright © King Saud University